الفصل الثالث
اللغة العربية والتحديات

الغرب الاستعماري ومحاولات طمس اللغة العربية والحد من انتشارها

لاشك أن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم وبالإسلام بشكل عام حفز الاستعمار قديماً وحديثاً لشن حرب متعددة الأشكال والأساليب على اللغة العربية.

وقد اقتضت الطبيعة الاستعمارية أن توجه ضرباتها لفك الارتباط بين الإسلام واللغة العربية؛ كون القرآن الكريم الوعاء الأكبر والأسلم لهذه اللغة.

ولإضعاف الصلة بين المسلمين وغير العرب، وبين الإسلام، والقرآن كان لابد من استخدام كل الأساليب لإبعاد المسلمين عن هذه اللغة. ولو دققنا النظر في تلك الأساليب الاستعمارية لوجدنا أنها تنطلق نحو استراتيجية خبيثة مازالت آثارها موجودة بشكل كبير إلى الآن. خاصة في الدول الإفريقية.

ولعل هذه الطبيعة الاستعمارية واحدة تجاه اللغة العربية منذ قرون طويلة، وقد بلغت شدة عدائها الأوج مع قدوم الموجة الاستعمارية الحديثة التي بدأت مع توسع التطلع الاستعماري والتنافس الدولي على احتلال أكبر قدر من البلدان الإفريقية والآسيوية، وإخضاعها لأساليب الحياة الثقافية والاجتماعية التي كانت عليها بلدانها.

وإضافة لذلك كله فقد نفذ المستعمرون مخططات هدامة تجاه اللغة العربية تمثلت بالآتي:

١ ـ فرض اللغة الفرنسية والإنجليزية على السكان المحليين، وهذا يعني فرض الثقافة الاستعمارية ومحو الثقافات المحلية.

٢ ـ العمل على إحياء اللغات الإقليمية لبعض المناطق الإسلامية على حساب اللغة العربية كما فعلت فرنسا لإحياء اللغة الأمازيغية، قاصدة من ورائها شق الصف العربي والإسلامي وإحياء نعرات قومية وتعصب عرقي وماشابه.

٣ ـ تشجيع اللهجات المحلية الدارجة أو العامية وجعلها لغة الإعلام والتخاطب بين

الناس، وطمس اللغة العربية الفصحى، وذلك بقصد قطع الروابط القومية العربية والإسلامية بين الجماهير وبين الإسلام والعروبة، وهذا مافعلته فرنسا في لبنان مثلاً، الذي مازال إلى هذا الوقت يعاني منها، وظهر أيضاً بشكل كبير في الجزائر؛ حيث عملت فرنسا لطمس الهوية العربية حتى تداركها المخلصون والعلماء بالعمل الدؤوب لإعادة انتشار اللغة العربية، وساهمت بعض الدول العربية مثل سوريا ومصر والجماهيرية بإرسال المدرسين لتعليم اللغة العربية في مدارس الجزائر وجامعاتها.

فعندما دخل الاستعمار الفرنسي بعض مناطق إفريقية استخدم سياسة واضحة في محاربة اللغة العربية والإسلام فيها.

ففي مالي انتشرت اللغة العربية في أوساط الماليين حتى جاء الاستعمار الفرنسي مع بداية القرن العشرين. ومن الثابت أن جميع الوثائق الهامة في غرب إفريقية كانت تكتب بلغة القرآن الكريم، فضلاً عن أنها لغة الحكومة والمراسلات الدولية والتجارة. وقد غدت اللغة العربية لغة تخاطب بين القبائل في نصف القارة الإفريقية كما يشير لذلك المؤرخ توماس أرنولد.

إلى جانب ذلك فقد ظلت اللغات المحلية حيّةً، وتكتب بالأحرف العربية، وقد كان القضاء على اللغة العربية من أهم أهداف الاستعمار الفرنسي. وقد قوبلت سياسته بمقاومة عنيفة. وأغرب مافي السياسة الفرنسية في مالي أنها وضعت المدارس الخاصة التي تدرس اللغة العربية والإسلام تحت إشراف وزارة الداخلية إلى جانب المساجد. وقد اعتبرها الفرنسيون قضية أمنية، من خلالها يجب مراقبة المسلمين وتطور تعليم لغة القرآن الكريم في المجتمع.

وخلال فترة الاستعمار الفرنسي لمالي أنشأ الفرنسيون في أبناء مالي نوعاً من التبعية، فانقسم المجتمع إلى محب ومدافع عن الثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية، ومدافع عن اللغة العربية ومحافظ عليها. لكن القوى المؤيدة للثقافة الفرنسية استطاعت أن تحصر التعليم باللغة العربية على المدارس الابتدائية والإعدادية

فحسب. وإذا أراد أي طالب إكمال دراسته الثانوية فإنه سيضطر إلى الدراسة بالفرنسية. وهذا أحد أساليب محاربة اللغة العربية وحصر انتشارها.

وتعتبر مرحلة استعمار فرنسا للجزائر من أخطر مراحل الاستعمار على اللغة العربية. ففرنسا سعت إلى جعل الجزائر قطعة لاتتجزأ من التراب الفرنسي أرضاً ولغة وثقافة ودِيناً.

وقد انتهجت سياسة تقوم على إحلال الفرنسية محل اللغة العربية في جميع مجالات الحياة الاجتماعية، حتى يصبح المجتمع الجزائري فرنسي اللسان والثقافة، وينقطع بذلك عن تاريخه، ويفقد مقومات شخصيته القومية تدريجياً، ويذوب في بوتقة الأمة الفرنسية، وقد كان التعليم كله باللغة الفرنسية بقصد تنشئة أفراد المجتمع الجزائري على اللغة الفرنسية[1]. وقد فرضت اللغة الفرنسية في الإدارة والمحيط والاجتماع وأجهزة الإعلام، فأصبحت هي اللغة الرسمية في الإدارة والوحيدة في كتابة أسماء الحملات والشوارع والمدن وكل المرافق العامة، واستبدلت بمعظم الأسماء العربية للشوارع والمدن أسماء لقادة الغزو العسكري والفكري للجزائر[2].

وقد انتهجت السياسة الفرنسية اتجاهات متكاملة العناصر متحدة الأهداف في سبيل القضاء على اللغة العربية.

وأهمها التفرقة بين الأهالي في المناطق المختلفة، وخاصة بين المتحدثين بالعربية والمتحدثين باللهجة البربرية، اعتقاداً من الإدارة الفرنسية بأن عزل هؤلاء عن أولئك ودق إسفين الخلاف بينهم سيسهل عليها فَرْنَسَة المتحدثين بإحدى اللهجات، لإيهامهم بأنهم من عنصر غير عربي. وأنهم أصحاب البلد الأصليين، وقد استعمرهم العرب وفرضوا عليهم لغتهم العربية[3].

وبعد أن رحل الاستعمار الفرنسي عن الجزائر مع بداية الستينات ترك وراءه

---

(١) د. أحمد بن نعمان: فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر صفحة ٨١ ـ ٨٢.

(٢) المرجع السابق ص ٨٣.

(٣) المرجع السابق ص ٨٥.

مخلفات قاسية ومدمرة. ولعل ماتركه من الآثار السلبية في الجزائر فاق كل الآثار التي تركها الاستعمار في أي بلد آخر.

فعلى الرغم من حملة التعريب التي أقرتها الدولة في كل القطاعات مايزال الكثيرون يستخدمون الفرنسية وخاصة في الأحاديث العامة بين الناس. وإضافة لذلك فقد هاجر الملايين من الجزائريين إلى فرنسا وقد فرضت اللغة الفرنسية عليهم، وكاد بعضهم أن ينسى اللغة العربية نهائياً.

وقد حاول الفرنسيون نفس المحاولات في تونس والمغرب، وماتزال آثار فرض اللغة الفرنسية باقية حتى وقتنا الحاضر في كل الدول التي حصلت شعوبها على الاستقلال بعد الاستعمار الفرنسي الطويل.

والواقع أن الذي حافظ، إلى حد ما، على استمرارية اللغة العربية بين أبناء الشعب العربي في الجزائر هو العامل الديني. فالتمسك بالإسلام وبالقرآن الكريم جعلا العرب الجزائريين يحافظون على هذه اللغة، على الرغم من محاولات الفرنسيين محاربة الإسلام ودق الأسافين التدميرية بين المسلمين وقرآنهم الكريم.

ولعل ماقام به الروس القياصرة، ومن ثَمَّ الشيوعيون من حرب شرسة على اللغة العربية في الأقاليم الإسلامية التي خضعت لاحتلالهم، يعطي أبشع صورة من صور الاستعمار عبر العصور.

فالروس الذين راحوا منذ أواسط القرن السادس عشر يزحفون باتجاه بلاد المسلمين كانوا يريدون اجتثاث الإسلام من جذوره، وكان من الطبيعي أن تبدأ حربهم ضد القرآن واللغة العربية.

وقد رافق حملاتهم العسكرية حملات تنصيرية إلى شمال القوقاز وشيدت كنائس في كباردیا بأمل اجتذاب أرستقراطية الكبردين والشركس إلى المسيحية. أمل وجد مايبرره في جزء من النبالة الإقطاعية التي ارتدت إلى المسيحية الأرثوذكسية الروسية.

أما من حيث محاربتهم للغة العربية فمن المعروف أن غالبية مسلمي آسيا الوسطى وبلاد القوقاز كانت تكتب لغاتها بالأحرف العربية، أو تستخدم العربية في

مدارسها وإداراتها.

ففي أوزبكستان تبنت الدولة لغة جديدة عام ١٩٢٣ وهي اللغة الأزبكية الحديثة، وكانت تكتب بالأحرف العربية المعدلة.

وفي داغستان لم تبلغ قبل ثورة ١٩١٧ أية لغة داغستانية مرتبة لغة أدبية حقيقية، وكانت النخبة المثقفة من أهل البلد تستخدم اللغة العربية لغة أدبية لها. وكانت في الوقت ذاته اللغة الرسمية لمنطقة الإمام شامل، وظلت كذلك اللغة الدارجة بين العروق القوقازية حتى عام ١٩٢٨.

وفي ظل النظام الشيوعي ١٩٢٨ أبعدت العربية كلغة أدبية لما لها من طابع ديني، وطبقت سياسة تتريك اللغة حتى عام ١٩٣٣، فاستخدمت التركية الآزرية، وفي مطلع الثلاثينات شنت الحكومة الروسية حملة واسعة لتصفية شعوب الرابطة التركية، ففرضت خمس لغات داغستانية بالأحرف اللاتينية أولاً، ثم استبدلت الروسية بها بعد عام ١٩٣٨.

ومن الأساليب التي اتبعها السوفييت أنهم سمحوا للإدارة الروحية في آسيا الوسطى وكازاخستان بإصدار مجلة تظهر كل ثلاثة أشهر، وذلك عام ١٩٤٦ وباللغة الأوزبكية، وبالأحرف العربية، وكل ذلك لئلا لايقرأها المسلمون الناطقون بالأزبكية، لأنهم يجهلون قراءة العربية، خاصة بعد أن استبدلت كتابتهم بالأحرف العربية بالكتابة بالأحرف الروسية. وفي عام ١٩٦٩ استبدلت هذه المجلة بصحيفة تصدر كل ثلاثة أشهر هي مجلة (المسلمون في الشرق السوفييتي) وتطبع بالأحرف العربية واللغة الأاوزبكية كي لايقرأها أحد، وتصدر عنها نسخة طبق الأصل باللغة العربية توزع في البلدان العربية للدعاية الفارغة والمضللة لواقع المسلمين المؤلم، وحملة السلطات الروسية المستمرة للقضاء على دينهم وقوميتهم[1].

والواقع أن تراجع اللغات التي كانت تكتب بالحرف العربي هو حالة إشكالية لابد

---

(١) ألكسندر بينيفس. المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفييتي ترجمة عبد القادر الضللي ص ١٢٥ دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٨٩ ص ١.

للعرب من دراستها، والعمل بكل إمكاناتهم لعودة هذه الدول إلى كتابة لغتهم بالحرف العربي، علماً أن سبعين بالمائة من الكلمات هي عربية في العديد من هذه اللغات.

والواقع أيضاً أن وصول الإسلام لبلاد ماوراء النهر، وكذلك شمال القوقاز يعني وصول العربية. وعندما كانت الدولة العربية الإسلامية قوية كانت اللغة العربية منتشرة بين أبناء تلك المناطق. ومع الغزو القيصري الروسي ثم الاستعمار الشيوعي انحسرت اللغة العربية رسمياً. ولولا وجود المسلمين المتمسكين بدينهم من أصحاب الطرق الصوفية، واحتفاظهم بالقرآن وبلغة أجدادهم لما رأينا اليوم واحداً منهم يتحدث العربية أو يقرأ القرآن.

وكان الروس يمنعون وصول القرآن الكريم إلى كل هذه الشعوب، وقد حدثني أحد رجال الشراكسة المقيمين في بلاد الشام أن الحجاج الشركس عندما كانوا يأتون إلى دمشق يوزعون بينهم صفحات القرآن ليتمكنوا من إدخاله بشكل لاتصل إليه أيدي المخابرات السوفيتية ويخفونه في ملابسهم ثم يجمعونه في بلادهم ويتداولونه سراً بينهم.

أما محاربة اللغة العربية من خلال الترويج للهجات العامية، فقد بدأت مع بداية الاستعمار في العشرينات من القرن العشرين وخاصة في مصر ولبنان. وقد دفع الاستعمار بعض العرب إلى التنادي بما يسمى الأمة اللبنانية الفينيقية، والأمة المصرية الفرعونية. ومع تنامي هذه الدعوات الإقليمية تنامت أيضاً النزعة إلى استخدام اللهجات المحلية واستبدالها باللغة العربية، وقد برر دعاة العامية ذلك بأن هذه اللهجات تسهل التخاطب بين الناس.

وقد كرس دعاة الإقليمية جهودهم لتحرير هذه المؤامرة على اللغة العربية حتى وصل بهم الحد إلى الدعوة إلى العامية وكتابتها بحروف لاتينية، على غرار مافعلت العلمانية في تركيا عندما غيرت الحروف العربية بحروف لاتينية في كل الأراضي التركية.

وقد بلغ ببعض المدافعين عن الإقليمية أن نادوا بفصل التراث اللبناني السوري عن التراث العربي، فأثناء الحرب العالمية الأولى شكل أدباء المهجر الشمالي لجنة سميت لجنة تحرير سورية ولبنان، وترأسها أمين ثابت، وكان في عضويتها جبران

خليل جبران وميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد ونسيب عريضة ووليم كاتسفليس ووديع باحوط، وقد قامت هذه اللجنة أساساً على أساس استقلال سورية ولبنان عن المسألة الحجازية. وأصدرت هذه اللجنة بحثاً تاريخياً يقول إن السوريين هم من أصل سرياني فينيقي مع خليط يوناني وروماني وعربي.

وجاء فيها (إن السوريين ليسوا بعرب، واللغة العربية التي يتكلمون بها اضطرهم الفاتحون إلى استعمالها بدلاً من الآرامية الوطنية واليونانية اللتين كانتا اللسان الشائع في البلاد السورية. ثم تقول المذكرة: (إن مابين فرنسة وسورية من التقاليد التاريخية والعلائق الأدبية والاقتصادية، ولاسيما أن ماقامت به فرنسة سنة ١٨٦٠ من العمل الكبير الذي أدى إلى إنقاذ الأقلية في البلاد من الإنقراض والفناء، قد أوجد فينا عاطفة امتنان وولاء لايمحى نحو الدولة الفرنسية[١].

ويتضح من هذا أن الاستعمار أوجد بعض الفئات الانعزالية التي تدافع عنه وعن لغته، وتقف موقفاً عدائياً من اللغة العربية والإسلام بشكل عام، وقد برزت آثار عدة بسبب تلك الدعوات المشبوهة. ومازالت إلى الآن تفعل فعلها الخبيث في وسائل الإعلام المتعددة وخاصة في الشاشة الصغيرة ومحطات الإذاعة.

فبعض المحطات التلفزيونية المشبوهة تستخدم في غالبية برامجها اللهجة المحلية اللبنانية، ولايبقى سوى نشرات الأخبار لتُقدم بالفصحى المكسّرة والمطعمة بالعامية أحياناً.

وكذلك هناك محطات إذاعية تستخدم العامية في كل برامجها حتى إنها تقدم نشراتها الإخبارية بتلك اللهجات العامية السيئة.

وفي فترات سابقة قامت بعض الجهات بنشر مجلات وكتب استخدمت خليطاً من الفصحى والعامية وبعض المفردات الخاصة باللهجة الدارجة. لكن حملات التصدي المستمرة حدّت من نشاطات الجهات التي تقف وراء هذه الوسائل الإعلامية.

---

(١) د. عبد الكريم الأشتر. النثر المهجري ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

وقد قيض الله للغة العربية مفكرين وأدباء تصدوا للذين دعوا للعامية إن كانوا في لبنان أو مصر أو في الجزائر أو غيرها. ومن الذين تصدوا نقاد ومفكرون وأدباء وشعراء، وضمنوا قصائدهم ومقالاتهم تعزيز اللغة وقيمتها.

فهذا حافظ إبراهيم يقول على لسان العربية:

وسعتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايةً ... وما ضقتُ عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

وجاء على لسان عبد الله النديم وهو يرد على أمين شميل الذي قال كلاماً في إحدى مقالاته يقر فيه موت اللغة العربية ويدعو إلى استبدالها بلغة حية:

(إن من يتخلون عن لغتهم يفقدون الجنسية رأساً ويجنسون باللغة الطارئة، فإذا كانت أمة مستقلة وغيرت لغتها بغيرها ضعف فيها الاستقلال بقدر مايضعفون لغتها. فإذا تم التغيير فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان)[1].

وقال: واجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها)[2].

وتقول بنت الشاطئ: (وإذا كانت اللغة العربية قد صمدت لهذه المحاولات من سلامة موسى وعبد العزيز فهمي وأمين شميل فلأنها دون ريب تملك من القوة والحيوية للبقاء ماقاومت به محاولات المسخ، ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت)[3].

والواقع أن الدعوة للعامية وتبني بعض الجهات لها، ومن ثم استعمالها في وسائل الإعلام، كان لها أكبر الأثر السيّىء على الناشئة. ومما يزيد تفاقم الخطر انتشار الشاشة الصغيرة في كل بيت، ولايخفى علينا كم يتعلق الأطفال بأفلام الصور

---

(١) بنت الشاطىء ص ١١٤ ـ وصفحة ١٤٢.

(٢) بنت الشاطىء ص ١١٤ ـ وصفحة ١٤٢.

(٣) بنت الشاطىء ص ١٥٨.

المتحركة وغيرها من التي تبث باللهجات المحلية. وإضافة لذلك نرى ندرة البرامج المتخصصة بتعليم العربية الفصحى بل فقدانها في بعض المحطات.

وإذا كان المجتمع العربي يعاني من طغيان الأميّة فإنه الآن بدأ يعاني من انتشار العامية على حساب الفصحى، وهذا مايؤدي إلى أمية أخرى أخطر وأفدح.

لقد حاول الاستعمار طمس الهوية الإسلامية، وكانت أعنف المعارك موجهة إلى القرآن الكريم وإلى اللسان العربي وإلى الحرف العربي.

وإن معركة الحرف العربي وحدها تحتاج إلى دراسة ورصد وخطة متكاملة فاقتلاع الحرف أو غرسه إنما هو قطع أو ربط حضاري واتجاه فكري، وإضعاف الصلة بالقرآن وباللغة العربية والحضارة الإسلامية يؤدي بدوره إلى الانحسار الحضاري وظهور النزعات الضيقة تماماً كالماء. إذا كان فيضاً متدفقاً غطّى الحفر الصغيرة والنتوءات وظهر سطح الماء مستوياً وإذا قلّ تحول النهر الجاري إلى مستنقع آسن[1].

وإزاء هذه المؤامرات الخطيرة ضد لغتنا العربية فلا بد لكل المجامع اللغوية، واتحادات الكتاب العرب واتحادات الصحافة واتحادات الإعلام من أن يعملوا بكل جهودهم للحفاظ على هذه اللغة في كل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

---

(١) الإسلام والعروبة في عالم متغير، د. عبد العزيز كامل ص ٨٣.

المدارس التبشيرية ودورها في إنعاش اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية

من المعروف أن الاستعمار الأوروبي الذي بدأ حركته الاستعمارية الواسعة منذ القرن السادس عشر جنّد المنصِّرين من كهنة وقساوسة أكاديميين كي ينشروا العقيدة المسيحية بين أوساط الشعوب التي وقعت ضحية الغزو والاحتلال، وكان لابد لهؤلاء من إنشاء المدارس التبشيرية في المدن والبلدات وفي القرى النائية. ومع استمرار هذه الحركة حولوا المدارس إلى معاهد كبيرة، ومن ثم طوروا بعضها لتصبح جامعات تضم عدداً من الكليات النظرية والتطبيقية، وكان من الطبيعي أن يكون التعليم في هذه المدارس والمعاهد والجامعات بلغة الدولة المستعمرة.

وقد واجهت بعض الشعوب الإسلامية والعربية سياسة التغريب اللغوي التي فرضها المستعمرون، ولاسيما في إفريقية وبعض البلدان العربية كالجزائر ولبنان وغيرهما.

وقد استخدمت المدارس التبشيرية عدة أساليب لنشر لغة البلد المستعمر ومحاربة اللغة العربية وإبعاد جماهير المسلمين عنها. ومن هذه الأساليب:

١ ـ إنشاء المؤسسات التعليمية العالية لجلب أبناء المسلمين حيث يوفرون لهم وسائل الراحة والترفيه.

٢ ـ منح العديد من الطلاب التسهيلات لإكمال دراستهم العليا في البلاد الأوروبية.

٣ ـ الحد من نشاط مدارس القرآن الكريم، ما أدى إلى إضعافها وفقدانها في بعض البلدان.

٤ ـ جعل اللغة الأوروبية اللغة الأولى في الدراسة وإهمال اللغة العربية واللغات المحلية إهمالاً كاملاً.

فعلى سبيل المثال بلغت ميزانية دراسة اللهجات والعادات والتقاليد في جنوب

السودان أكثر من ستة عشر مليون دولار. ويختار لها أفضل الطلاب ليعدّوا بها رسائل الماجستير والدكتوراه، ويشترطون عليهم دراسة وكتابة إحدى لغات هذه القبائل التي لم يسبق أن درسها أو كتبها أحد قبلهم.

ومن الأساليب أيضاً ماتقوم به بعض البعثات التنصيرية من طباعة جديدة للإنجيل، وكذلك الترانيم الدينية باللغات المحلية الإفريقية. أو باللغة الأجنبية التي يفرضها المستعمرون على الشعوب الإفريقية، وقد تم توزيع عشرين ألف نسخة من الإنجيل على الجنود في بوركينا فاسو بغرب إفريقية ولأول مرة صدر الإنجيل بلغة (الكريو) بسيراليون غرب إفريقية وذلك على يد جمعية الكتاب المقدس هناك. وهذه اللغة ينطق بها أكثر من مليون شخص.

وعلى الرغم من أن نسبة المسلمين هي الأكثر في سيراليون وبوركينا فاسو وغيرهما، إلا أن الاستعمار ظل يضيق الخناق على الطلاب حتى أصبحت مقاييس العلم بالنسبة لهم تبدأ من إتقانهم اللغة الأجنبية. ولعل ذلك أيضاً وافقه فرص العمل والتوظيف، حيث يشترط بالذي يريد الوظيفة أو التعليم أن يكون متقناً للغة الأجنبية التي فرضها الاستعمار على البلد المستعمر. وقد شجعت مداس التنصير على ذلك، بل إنها تعمل جاهدة لاستبعاد اللغة العربية استبعاداً كلياً، ولعل الهدف من وراء ذلك كله إبعاد روح الإسلام عن المواطنين بإبعادهم عن اللغة العربية لغة القرآن.

وإضافة للمدارس التنصيرية فإن الاستعمار ركز على المراكز الثقافية في البلاد المستعمرة. ففي الجزائر مثلاً يعتبر المركز الثقافي الفرنسي أقدم هيئة ثقافية أجنبية، وقد فتح أبوابه مع بداية عام ١٩٦٣، وهو يمثل القناة الأساسية في تثبيت اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية. وفي هذا المركز مركز إعلامي يقدم دروساً ودورات لغوية. والشيء البارز في فروع المركز الثقافي الفرنسي تعليم اللغة، ويقدم المركز دروساً لأربعة مستويات بالإضافة إلى المستوى العالي.

ويصرح مدير المركز آلان دورمسون أنه مرتاح لوضعية الثقافة الفرنسية في الجزائر، ويقول إن اللغة الأكثر استعمالاً في الجزائر هي الفرنسية، وكان من نتاج

هذه السياسة ارتياح الفرنسيين واطمئنانهم على مواقعهم اللغوية في الجزائر، وهيمنة اللغة الفرنسية في ميادين حساسة كالإدارة والإعلام والتعليم والمحيط[1].

ويحاول الاستعمار من خلال معاهد التدريب والمراكز الثقافية أن يؤثر على المدى الاستراتيجي في إبعاد المسلمين والعرب عن لغتهم العربية. والواقع أن مراكز ثقافية غربية تنتشر في أكثر البلاد العربية، وتقدم ثقافتها من خلال كتب توزعها باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، إضافة لكتب باللغة العربية فيها من السمّ أكثر بكثير مما فيها من الدسم.

ولعل من أهم أساليب المدارس التنصيرية الترويج للهجات المحلية، والدعوة لنبذ الفصحى ونشر اللهجة الدارجة وجعلها لغة رسمية. وقد انتشرت هذه الدعوة في بعض الأوساط اللبنانية والمغاربية والمصرية والإفريقية.

ويرى أكثر الهاجمين على استعمار الشرق أن تقطيع أوصال العرب والمسلمين لايمكن أن يتم مادام هنالك لغة واحدة يتكلمها العرب ويعبر بها العرب والمسلمون عن آرائهم. ومادام هنالك حرف عربي يربط حاضر المسلمين بتراثهم الماضي.

فإذا حمل المُنَصِّر والمستعمرون العرب على الكتابة باللغة العامية أصبح لكل قطر عربي لغة خاصة به، أو لغات متعددة، ثم إذا هم استطاعوا أن يحملوا المسلمين على التخلي عن الحرف العربي وإحلال الحرف اللاتيني مكانه انقطعت صلة العرب تماماً بأدبهم القديم وبالمؤلفات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والفكرية[2].

وقد حاول المستشرق الفرنسي ماسينون أن يبث دعوته لأجل نشر العامية وجعلها اللغة الرسمية والكتابية، وذلك في المغرب ومصر وسورية ولبنان.

وقد استجاب لدعوته عدد من الكتاب المغرر بهم في لبنان فألفوا بعض الكتب في ذلك، ومنها قواعد اللهجة اللبنانية السورية من تأليف رفائيل نعمة. والكتاب موضوع بالفرنسية والنصوص العربية منسوخة بالحرف اللاتيني، وقد طبع الكتاب

---

(١) د. أحمد نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) د. مصطفى خالدي. د. عمر خروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ٢٤٤ ط٣/ ١٩٩٤.

بالمطبعة اليسوعية، ومنها أيضاً التحفة العامية في قصة فينانوس تأليف شكري خوري نشرها الأب لاي اليسوعي، ومؤلف بلغة لبنان العامية، وهو أيضاً طبع في المطبعة اليسوعية، ومنها كتاب (مين متلو هلكتاب تأليف الخوري مارون غصن أحد المدرسين في مدرسة عنطورة (لبنان).

ومن خلال مسار هذه الدعوة نجد بوضوح أن الحملة على العربية الفصحى إنما هي في حقيقتها حملة على اللغة التي تجمع بين العرب والمسلمين، وحملة على العرب والمسلمين، وأمنية كبرى لهم في أن يصبح القرآن الكريم كتاب دين لاصلة له بالحياة. غير أن الله الذي جعل في القرآن من عناصر الخلود ماحفظه إلى اليوم، بينما جميع اللغات التي كانت في عصره أو بعد عصره أيضاً قد بادت وانقرض المتكلمون بعدد كبير منها سيجعله خالداً أبداً)[1].

(١) المصدر السابق ص ٢٣١.

العولمة والهوية وأثرها على اللغة العربية

قد يستغرب بعضنا حين نبحث موضوع العولمة وأثرها السلبي على اللغة العربية ومستقبلها.

فالعولمة في ظاهرها إزالة كل الحواجز، وفتح الحدود أمام التجارة الحرة عن طريق آلية الاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة الجمركية (الغات)، وتوسيع دائرة نشاط المؤسسات العملاقة وهي ذات آلية سياسية تهدف إلى القطبية أو الزعامة أو التفرد، وفي الوقت نفسه فإنها تعني نسف الثقافات القومية والوطنية وحذف الصلة بين الحاضر الثقافي وماضيه. وبالتالي خلق ثقافة مفصلة من قبل الأوساط الغربية الأمريكية يلبسها أبناء الشعوب ليصبحوا بالتالي مستعبدين للثقافة الغربية القاتلة.

ومن المعروف أن الغرب الذي يشن حملة مسعورة على الإسلام، خاصة في العقدين الأخيرين من هذا القرن، يستهدف العروبة بكل مفرزاتها الثقافية، ويستهدف الإسلام بكل جوانبه، والقرآن الذي حفظ للعربية قوتها مستهدف بالدرجة الأولى.

ويرى بعض الباحثين أن هناك عدة قرائن تدعم القول بأن الغرب يشن حملة مسعورة على اللغة العربية، كونها لغة القرآن الكريم، وكذلك على الثقافة العربية والإسلامية، من هذه القرائن إثارة المسألة الديموغرافية في القاهرة سنة ١٩٩٤، فهي محاولة لاختراق البنى التحتية للشعوب، وكذلك قضية المرأة التي عقد مؤتمر بكين لأجلها، فالعولمة تهدف إلى خلخلة البنى الثقافية الموروثة منذ زمن بعيد. وهذه الخلخلة المقصودة مبيتة في قوانين صدرت في التسعينات، وأهمها ملحق قانون حقوق الإنسان، وقانون الأقليات العرقية والدينية، وقانون التدخل المباشر في أي مكان من العالم للدفاع عن الأقليات.

ومن المعروف أن العقدين الأخيرين من القرن العشرين شهدا طرح العديد من النظريات التأسيسية، مثل نهاية التاريخ، وصدام الحضارات، ثم العولمة الثقافية، لذا وجب إقرار خطة تأخذ شكل التمرد على القطبية الثقافية وكشف الاختراق

الضمني للثقافات في مسألة العولمة. فالمسألة عالمية كونية. وأي ثقافة إنسانية راسخة قد تشكل عائقاً أمام الآلية الثقافية.

والواقع أن صمود اللغة العربية والثقافة العربية حمل دعاة العولمة للعمل على هدم اللغة العربية وذلك للأسباب التالية:

١ ـ أنّ اللغة العربية هي الميزة الأساسية لحضارة كاملة. فخصوصية اللغة العربية تجعلها مستهدفة.

٢ ـ أنّ اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي جسدت التحاماً بين الانتماء العرقي (الهوية) والانتماء الروحي (الإسلام).

٣ ـ أنّ التاريخ بكل موضوعية لم يسبق له أن عرف لغة عمرت أكثر من اللغة العربية. وهي اللغة الوحيدة التي صمدت وحافظت على كل مقومات اللسان الطبيعي وبناه من صوتيات وتراكيب ومعان. وهذا قد أثبته العلم اللغوي والحفريات التي ترصد تاريخ البشرية.

٤ ـ أنّ اللغة العربية أنتجت معرفة شاملة بالظواهر الإنسانية والطبيعية. فكان لها فضل السبق في علوم اللغة من نحو وصرف وعروض، حتى أصبحت مجالاً للبحث وتكونت مدارس يمتد تأثيرها إلى اليوم.

٥ ـ أنّ اللغة العربية هي المرشحة لتكون صامدة عند انسحاب عديد من اللغات من الساحة في ظل العولمة. فاللغة العربية لها مقومات من شأنها أن تقاوم عوامل التهرئة.

٦ ـ أنّ اللغة العربية هي الوحيدة التي تقوم شاهداً حياً على المنابع التي استقى منها الغرب معارفه وحضارته. فقد كان للعرب وللعربية فضل كبير في مجال علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب وعلم الفلك وعلم الاجتماع. فالغرب نفسه يشهد بالفضل لعلماء عرب مثل ابن سينا وابن خلدون وابن رشد وابن النفيس وغيرهم، ولهذه الأسباب فإن اللغة العربية تشكل تحدياً حقيقياً من شأنه أن يربك الاختفاء السياسي بالعولمة.

ويرى الدكتور عبد السلام المسدى، وهو متخصص بالبحوث والدراسات العربية والثقافية، أن نهاية القرن الواحد والعشرين ستشهد نهاية جل اللغات بحيث لن تبقى على قيد الحياة إلا لغات محدودة من بينها نذكر بكل اعتزاز وفخر اللغة العربية؛ لذلك نجد ردة الفعل الغربية متناسقة مع نيته المبيتة تجاه لغتنا بوجه الخصوص.

إن الوعي الحر يخلخل المسكوت عنه والمبيت ضمن القصور الثقافي المعولم. لقد تكشفت الازدواجية في لعبة تكامل الثقافات المعلنة ولعبة صراع الثقافات المبيتة. لقد تقصد الغرب فصل التاريخ عن المستقبل وغيّب التاريخ ليظهر الجغرافيا بقصد نسف الشرعية التاريخية والموروث الثقافي الذي تمثله اللغة بالنسبة للعرب على الأقل.

لكن اللغة العربية هي لغة حضارة، ذات صلة حميمة بكل ماهو تاريخي، وهي قرينة بالإسلام، وحلقة واصلة بين الكائن اللغوي والكائن العاقل. فلا عجب أن نجد الغرب يستهدف الإسلام بدعوى أنه منبع التسيس ومصدر الإرهاب، وبالتالي يسعى لمحاصرة لغة الضاد لأنها لغة الإسلام، ولا عجب أن نرى الغرب يقرن اللغة العربية بالفكر الرجعي، ويصورها على أنها مزرعة للعنف السلوكي.

والواقع أن اللغة العربية لم تكن ولن تكون يوماً لغة عنف وإرهاب، وإذا نظرنا إلى اللغات الغربية الواسعة الانتشار مثل الإنجليزية والفرنسية حتى الألمانية، وجدناها قدمت لغة الحروب المستمرة، ومن بينها حربان عالميتان أودتا بالملايين من البشر. بينما اللغة العربية وعلى مدى التاريخ العربي قدمت للإنسانية كل مايدفع للتقدم العلمي والثقافي والحضاري.

وحتى وقتنا الحاضر ماتزال اللغات الأوروبية التي تقدم للتكنولوجيا والعلوم المتطورة تقدم في الوقت نفسه لغات الاغتصاب والمخدرات والجنس والإباحية حتى باتت تخلو من مفردات الأخلاق الحميدة والعلاقة بين الإنسان ومنظومة العقائد والأفكار السامية.

وإذا كان الغرب يتهم اللغة العربية بأنها لغة رجعية فإنه يتجاهل عن عمد ما

للعربية من دور أساسي في التقدمية. فالرجعية في نظر الغرب أن يكون للعرب قيمٌ سامية وعلاقات روحانية راقية، فهم يريدون لهذه اللغة أن تكون لغة إباحية وشذوذ جنسي ومخدرات. عندها يصفونها بالتقدمية، وعدم التعصب.

ويحاول الغرب تسويق مقولات في غاية الخطورة، فبعض دهاتهم يقول إن تعريب الفلسفة هو سبب انتشار الإرهاب.

وهذه المقولة تستهدف اللغة العربية. ومثال على ذلك ماجرى عام ١٩٧٤ خلال محفل اللغات في الأمم المتحدة حين حاولوا سحب اللغة العربية من قائمة لغات الأمم المتحدة، بدعوى افتقارها لمترجمين فوريين جيدين. فما معنى هذا إن لم يكن القصد ترصداً مبيتاً للواقع العربي وللغة العربية.

ويعلق الدكتور عبد السلام المسدي ثانية على تفعيل آلية الأقليات. فيقول: (إن تفعيل آلية الأقليات جعلها جاهزة للتدخل المباشر. وهي آلية من شأنها أن تمكّن من حماية الأقليات اللغوية. وبات الغرب يكيل بمكيالين. فعلى الرغم من أن فرنسا وأمريكا فيهما تشتت عرقي وتنوع لغوي كبيرين إلا أنهما تتشبثان بهذا التنوع لأنه من الخصوصيات الثقافية المحلية. ويعامل معاملة التراث، أما في مجموعات ثقافية أخرى مثل الوطن العربي فهو يستخدم مكيالاً آخر ويرفع شعار الأقليات اللغوية. وهو مايفسر موقف فرنسا من البربرية واللهجات العامية في بلدان المغرب العربي عامة والجزائر خاصة. فكيف ولماذا تؤسس فرنسا أكاديمية للغة البربرية في باريس وأي موقف لعالم اللغات من هذه المسألة؟.

يقول الدكتور إنه لابد من التمييز بين المعرفة العلمية المحضة وتوظيفها لمقاصد غير علمية. فبالنسبة لعالم يعتبر اكتشاف لغة أو لهجة جديدة إثراء للمخزون التراثي والحضاري الإنساني، من ثم كان العكوف على دراسة اللهجات في الأقطار العربية إما أن يتم توظيف الموقف العلمي لخدمة موقف سياسي ثقافي يهدف إلى تشتيت الشعوب وتفتيتها، فهذا هو مبدأ فرق تسد، وهذه هي هيمنة العولمة بعينها.

إن مبدأ الانحياز واختلاف المقاييس يلقي بظلاله على العالم فأين المفر)[1]؟.

فحركة الاستعمار تؤسس اللهجات وحركة الاستشراق تبث السموم في اللغة والأدب العربي. وعلم اللهجات يؤسس للتشتيت، واليوم تشجيعات للبحوث في اللهجات واعتبارها جزءاً من التراث الإنساني.

والواقع أن أخطار العولمة بدأت تظهر بين أبناء العروبة من خلال فرض المصطلحات الغربية الثقافية والسياسية والاقتصادية، واستطاعت السياسة الغربية والصهيونية فرض مصطلحاتها السياسية التي لم تكن تقبل لدى المواطن العربي حتى وقت قريب. وقد وقع الإعلام العربي مثلما وقع المواطن في إشكالية استخدام المصطلح السياسي. وأصبح الكثيرون منا يبسطون الأسباب ويخلقون التبريرات لتحرير المصطلح السياسي الذي لم يكن مقبولاً حتى في أسوأ حالات الانهزام، ويقلبون كثيراً من المفاهيم المرتبطة بالصراع التي أسسنا عليها بناءنا العقلي والنفسي والعقيدي.

لقد أدرك الغرب وكذلك الكيان الصهيوني الأهمية القصوى التي يلعبها الإعلام، وأدركوا أن الإعلام هو السلاح الموازي للسلاح العسكري والاقتصادي، خاصة في ظل ماتطرحه العولمة المصدرة من أمريكا والأوساط الغربية.

ولاشك أن استخدام المصطلح السياسي في وسائل الإعلام يعتبر من أدق الأدوات وأخطرها في الإعلام لما له من تأثيرات على البنى العقلية والنفسية والاجتماعية.

ففي ظل العولمة يُطرح مصطلح (إسرائيل) منذ أكثر من خمسين عاماً على الرغم من أن مفهوم العولمة لم يبرز إلى السطح إلا مؤخراً. ولكن المواطن العربي وكذلك المسلم لم يكن ليقبل هذا المصطلح كأمر واقع. ولكن في ظل العولمة يريد الغرب وكذلك الكيان الصهويني أن يقبل مصطلح إسرائيل في العمق النفسي العربي. ليشكل في الذهن دولة قائمة لها حدودها وسيادتها وتاريخها، وبمعنى آخر يريدون أن يبتعد عن المصطلح أي بعد عدائي أو صراعي، واستخدام هذا المصطلح يعني

---

(١) جريدة الدعوة الإسلامية العدد ٦٥٥ تايخ ٢١/ ٧/ ١٩٩٩.

الإقرار بوجود علاقة جذرية بين أرض فلسطين والمتهودين القادمين من شتى أصقاع الدنيا، وليس العربُ الفلسطينيون سوى طارئين على هذه الأرض. ويجب إخراجهم منها. إذ لايمكن أن يفهم العالم وخاصة العالم الغربي وجود دولة تدعى (إسرائيل) ووجود دولة تقوم على نفس الأرض تدعى فلسطين.

وماينسحب على هذا المصطلح ينسحب على كل مشتقاته، وعلى كثير من المصطلحات التي لم تكن لتقبل في قاموس العقل العربي.

ومع توقيع أول اتفاقية اعتراف بالكيان في كامب ديفيد بات المواطن العربي وبالتدريج يلهج بمصطلح (اسرائيل) أكثر مما يلهج باسم فلسطين.

وفي ظل العولمة التي تريد أمريكا فرضها على العالم اصطنعت بعض الأطراف العربية التي تبرر استخدام مصطلحات الاعتراف بأن السياسة الدولية، وخاصة بعد مدريد، لم تعد تحتمل سماع مصطلحات العداء للكيان الصهيوني. فيجب الاعتراف بـ (إسرائيل) كأمر واقع كما اعترف بها العالم، وإلا سنفسح المجال للعالم الغربي أن يوصمنا بالارهاب والعنصرية والتطرف، وسيلفق ذلك العالم علينا كثيراً من الأقاويل، ومنها أننا نزيد إبادة اليهود، وهذا لم يعد مقبولاً لدى أحد من العالم الغربي خاصة. وبعض الأطراف العربية تمثل مجموعة من الأكاديميين والمثقفين، كجماعة كوبنهاغن الداعية للتطبيع مع العدو الصهيوني، يرى هؤلاء أن الكتابة الموضوعية بأساليبها العلمية لاتستخدم إلا ماهو واقعي، ولامكان للمصطلح العاطفي الانفعالي في الكتابة الموضوعية، وهذه الجماعات غالباً مايمثلها بعض كبار الباحثين المتأثرين بالمناهج الغربية.

إن هؤلاء الذين يبددون استخدام المصطلحات السياسية المرفوضة من قبل جماهير العرب والمسلمين، بسبب المتغيرات الدولية والعولمة، ينطلقون من موقف عاجز مشلول. ومحاربة العولمة التي تعني الغزو والتطبيع تفرض موقفاً مغايراً لموقف هؤلاء، فالواقع العربي ملزم باستخدام المصطلح السياسي النابع من قناعة المواطن وليس من قناعة الغرب صاحب مشروع العولمة. فالغرب لايطلب من

العرب مباشرة استخدام مصطلحاته، إنما هو بإعلامه وثقافته يغزونا. وبأساليب علمية كثيرة ويكرس مفاهيمه في عقولنا وأدبياتنا وثقافتنا. والمتغيرات الدولية مصطلح مبهم، وخطير في نفس الوقت. فما الذي تغيّر بالنسبة للعرب؟ المتغيرات الدولية فرضت قوة الكيان الصهيوني وتوسعه على حساب الأرض العربية والثقافة العربية، وكذلك على حساب اللغة العربية كمحصلة واسعة للعولمة.

إن الذي يحكم الباحثين الأكاديميين اليوم هو قاموس المصطلح الغربي وليس قاموس المصطلح العربي أو الإسلامي. ففي ظل العولمة بدأ إعلامنا يردد مايصدره الغرب من مصطلحات يوماً بعد يوم. فالوطن العربي يصبح شرق أوسط والكيان المغتصب يصبح دولة (إسرائيل)، وفلسطين تلغى من قاموس الإعلام. وعرب فلسطين يصبحون عرب دولة (إسرائيل)، وقس على ذلك في كل الأمور والقضايا المرتبطة بالصراع العربي الصهيوني.

والواقع أن موضوع العولمة يستجرنا للحديث عن قضايا في الأهمية، وتمس حياتنا المعاصرة بكل الاتجاهات. فالتطبيع والغزو الثقافي ركنان أساسيات في سياسة العولمة التي تريد فرضها الولايات المتحدة. ونفي الثقافة العربية وإحلال ثقافة الجينز الأمريكية محلها أحد أهم الأهداف الغربية في تقزيم الهوية العربية ونفيها لاحقاً.

وقد برزت معالم هذا الغزو الثقافي في كثير من المجالات الاجتماعية والثقافية، حيث فرضت اتفاقيات الاعتراف بالكيان الصهيوني على الدول العربية الموقعة أن تحذف مناهج تعليمها كل مايفضح سلوك اليهود والدول الاستعمارية عبر التاريخ. بل حذفت بعض الدول من مناهج الصفوف الابتدائية والإعدادية الآيات القرآنية التي تتحدث عن بني إسرائيل وتكشف انحرافاتهم وتحريفهم للدين، ومعاداتهم ودمويتهم تجاه بقية الشعوب والعقائد السماوية وخاصة الإسلام.

وإننا نهيب بالعرب الذين يوقعون صكوك الاستسلام أن يفرضوا على الكيان الصهيوني حذف المقولات والكتابات والوصايا التي تحتقر كل الشعوب غير اليهودية، وأن يتعاملوا بالمثل بحذف كل ماينا قض الحقيقة حول أرض فلسطين

وشعبها المشرد، وإعادة كتابة تاريخ المنطقة بشكل علمي وحقيقي ليدرس في جامعاتهم ومعاهدهم الدينية، ومدارسهم الرسمية، ولكن التنازل من طرف واحد دليل على الخزي والعار لهذه الأمة التي تحاول تمرير الواقع بحجة الظروف الدولية، والمصالح العليا، والخوف من العنصرية.

وإن صمود بعض البلدان العربية وعلى رأسها سورية وليبيا والسودان والسعودية ودولة الإمارات والكويت أمام الضغوط الدولية للتنازل عن الحق المشروع للشعب الفلسطيني وإعادة كامل الأراضي العربية في الجولان وجنوب لبنان ليدلنا على استمرار الصمود العربي لحماية هذا التراث العظيم، والحفاظ على اللغة والدين وكل ماجاء في القرآن الكريم حول اليهود؛ لأنه لايجوز التنازل عن حرف من حروف هذا القرآن الذي يقول الحقيقة التاريخية لهذا الشعب الذي يحتقر كل الأمم غير اليهودية، ويحتقر الأمة العربية ويعتبرهم طبقة دون طبقاتهم على زعم أنهم شعب الله المختار.

وإن الحملة الواعية التي يتصدرها الدكتور علي عقلة عرسان عبر المجلات والصحف الصادرة من اتحاد الكتاب العرب للوقوف أمام المهرولين والمنادين بكل أنواع التطبيع، لتدلنا على عمق الوعي، وثبات الموقف، وشدة التشبث بالانتماء العربي الأصيل في قطرن العربي السوري.

الإعلام والعامية: السلاح الأخطر على الأجيال

من المعروف أن الإعلام أصبح في هذا الوقت بالذات السلاح الأخطر والأكثر إسراعاً بالنتائج لدى الغرب الاستعماري والكيان الصهيوني وأصحاب الأبواق التغريبية من أبناء الأمة.

فالوسائل التي أصبحت عديدة ومتنوعة لم تعد تقليدية الأداء وتقليدية الوقت، فهي سريعة التطور دقيقة التوجه. فعلى الرغم من ضعف وسائلنا الإعلامية فإننا، ومن خلال الشاشة الصغيرة، أصبحنا نبث المسلسلات والمسرحيات وبرامج الأطفال باللهجات المحلية الإقليمية وهذا ما يهدد التواصل بين الناشئين على مختلف أعمارهم وبين اللغة الفصحى لغة القرآن الكريم، وكذلك اللغة العربية الرصينة التي دونت بها كتب التراث العربي.

وقد تجلت خطورة ذلك في عدة مناح وعدة طرق إعلامية:

١ ـ بث مسلسلات خاصة بالأطفال مما يسمى الصور المتحركة، وبعض هذه المسلسلات تستخدم اللهجات المحلية. بينما لو قارناها بالمسلسلات التي تستخدم اللغة الفصحى لوجدنا كم هو الفارق، على مستوى انعكاس اللغة على عقل الطفل وعلى لغته.

٢ ـ كثرة الدعايات المروّجة للمواد الاستهلاكية، وهي تستخدم بعض الألحان الخفيفة والغناء بالعامية، وكذلك التعليق عليها، وقد أصبح الأطفال يرددون هذه الدعايات حتى في الطرقات والمنازل وساحات المدارس.

٣ ـ نشر الكثير من القصص والأشعار العامية مما سمى بالزجل، وذلك في صحف ومجلات تصدر عن فئات مشبوهة معادية للغة العربية الفصحى والإسلام، وقد ظهر العديد منها ومازال يظهر حتى وقتنا الحاضر.

٤ ـ ظهور محطات إذاعية تستخدم اللهجة العامية حتى في أخبارها الرئيسية وتعليقاتها.

وفي الوقت نفسه تجد هذه الإذاعات تبث أغاني الميوعة والخلاعة وتنتقي برامجها انتقاء وبتوجيه تخريبي واضح، لتبث للمواطن العربي في كثير من المناطق.

٥ ـ التهاون الشديد مع طلاب المدارس حتى الجامعيين في استخدامهم العامية، وعدم المحاسبة المنطقية على انتشار الأخطاء الشائعة وخاصة في الامتحانات العامة. وقد تجلى انعكاس ذلك في الضعف لدى الطلبة والخريجين الجامعيين في الجامعات اللبنانية والجزائرية، وبات الضعف يتسرب حتى إلى الجامعات القوية في سوريا ومصر. ولعل هذا الضعف في اللغة العربية تعود أكثر أسبابه إلى تهاون المدرسين مع الطلاب، وعدم الاكتراث لمئات الأخطاء النحوية والإملائية المستخدمة في الامتحانات التحريرية والشفهية، وحتى في البحوث المقدمة من قبل طلاب الدراسات العليا. ولاشك أن هذا يقودنا للتنبيه إلى مراعاة الشروط العلمية الموضوعية في انتقاء المدرسين الأكفياء القادرين فعلاً على هضم العربية وإعطائها للطلاب بشكلها الصحيح.

٦ ـ عدم وجود برامج مكثفة وحلقات تلفزيونية مخصصة عن اللغة العربية دائمة ومستمرة.

فالمراقب والدارس لانعكاسات الدعاية في الشاشة الصغيرة يرى أن الناشئة الذين يتلقون هذه الدعاية لايهتمون بمضمون الدعاية وليس من شأنهم الاهتمام بها. وإذا تساءلنا لماذا ينتظر معظم الأطفال سماع دعاية ما، على الرغم من أن موضوعها لايخص الطفل؟ الواقع يقول لنا: إن الدعاية تقدم من خلال أغنية راقصة أو مضحكة تُقال باللهجة العامية يأخذها الطفل لحناً ولهجةً ويرددها في أوقات عدة. فإذاعرفنا أن أكثر من عشرين دعاية تقدم على مدار الساعة في محطة واحدة أدركنا أن عقل الطفل سينشغل بها مدة زمنية كبيرة تنعكس على وقته ودراسته سلباً. والأخطر أيضاً أنها تكرس اللهجة العامية في عقله ونفسه وتنسيه لغته العربية الفصحى.

وفي الإطار نفسه تقدم دعايات للمواد الاستهلاكية الأجنبية أوبعض الآلات الصغيرة، وتقدم بأسمها الأجنبي باعتبارها قادمة من الغرب. وكثيرون منا يلهجون

باسمها الغربي في أوساط المجتمع ، وتصبح جزءاً من لغتهم اليومية فيما بينهم .

ومن أساليب الدعاية استخدام اللوحات الزجاجيـة أو الإلكترونيـة الكبيرة فـي الشوارع الرئيسية أو الساحات الموجـودة في المراكـز الحساسـة مـن المـدن . وتقـدم هذه اللوحات دعايات للمواد الاستهلاكية بلغة عامية مقيتة حتـى يصعـب علـى المـارّ قراءتها .

الأفلام والمسرحيات والمسلسلات العامية وخطورتها على اللغة العربية

من المعروف أن الأفلام السينمائية أمر طارىء على المشرق العربي والإسلامي، وقد تقدمت السينما العربية في هذا المجال من حيث فنيتها وكوادرها وأجهزتها، ويعتبر الفيلم السينمائي من أهم الصناعات الفنية التي غَزَتْ دُور السينما العربية والشاشة الصغيرة إذ إنها تجسد حياةً بصورة مصغرة.

ومنذ البدايات ظهر أن التوجه اللغوي في غالبية الأفلام وخاصة المصرية كان يميل لاستخدام العامية المصرية أو غيرها.

وقد جاء من يدافع عن استخدام العامية في هذه الأفلام، حيث برروا ذلك بأن اللهجة المحلية أقرب إلى نفسية المواطن من اللغة الفصحى، وأن لكل بلد خصوصية في لهجته.

والواقع أن الآثار السلبية الكبيرة على اللغة العربية أدت منذ البدايات دوراً في إبعاد المجتمع عن اللغة الفصحى. فبدل أن تقوم المؤسسات الرسمية والشعبية بدور المدافع عن إحياء اللغة الفصحى بعد أن انحط مستواها زمن الحكم التركي لجأت إلى أسلوب معاكس تماماً، حيث بدأت من خلال السينما ببث روح الإقليمية باستخدامها اللهجات المحلية.

وقد ظهرت سلبيات ذلك بشكل ملموس، خاصة عندما تبث أفلام باللهجة المحلية في غير قطرها. فلا اللهجة مفهومة ولا المواطن يستفيد.

وعلى سبيل المثال لو بُث فيلم جزائري باللهجة المحلية في لبنان أو سوريا لما وجدنا شخصاً واحداً يفهم هذه اللهجة، وكذلك الأمر لو بُث فيلم عراقي في تونس أو موريتانيا لما فهم أحد ماذا يقول الممثلون. ومن المعروف أن اللغة هي المعبرة عن الأفكار والنفسيات. فهذا يعني أننا لن نفهم الأفكار وستكون نفوسنا في

حل من التأثر بما يدور في الأفلام المستخدمة اللهجة المحلية.

ومن الأخطار التي تنشأ عن بث الأفلام باللهجات المحلية أنها تكرس الإقليمية وتباعد المسافات بين أقطار العرب وأهدافهم في الوحدة العربية والإسلامية، وبما أن الفيلم يفصح عن أفكار المجتمع الذي خرج منه فإن بثه باللهجة العامية لن يفسح المجال أمام المواطنين العرب لفهم طبيعة الآخرين وحياتهم وكيفية تفكيرهم. وهذا مايكرس عدم التواصل الثقافي والاجتماعي بين العرب، ولن يكون الانعكاس محصوراً في دائرة واحدة أو زمن واحد. إذ كيف يتم فهم الآخرين والتعامل معهم إن لم يكن لدى الجميع خلفية ثقافية ومعرفية واسعة ومشتركة؟

ولو قارنا بين مدى تأثير الكتاب الذي يكتب بالعربية الفصحى السليمة وبين مدى تأثير الأفلام لأدركنا الفارق وأدركنا الخطورة. فالكتاب يقرأ من قبل أي عربي كونه كُتب بالفصحى. بينما الفيلم لايفهم لغته وأفكاره إلا أبناء البلد الذي أنتج الفيلم فيه، كونه استخدم اللهجة القطرية المغلقة، ولم يستخدم الفصحى، كونها اللغة المشتركة بين أبناء العرب جميعاً.

ويتضح الفارق أيضاً عندما نقارن بين الأفلام التي استخدمت الفصحى والأخرى التي استخدمت العامية.

فالأفلام التاريخية على قلتها تستحوذ على عقول الجميع ونفوسهم بسبب استخدام اللغة الفصحى المفهومة من قبل الجميع، وبسبب كونها تجسد التاريخ المجيد الذي يعتز به العرب أينما وُجدوا. وعلى سبيل المثال لا الحصر فيلم الرسالة الذي انتشر في مساحة الوطن العربي كله وتقبّله جميع أبناء العروبة بحماس ومحبة وتقدير. ولم نجد من يشكو من عدم فهم اللغة المطروحة فيه؛ لأنها لغة الجميع الصغير والكبير، المثقف وغير المثقف. لقد عبرت اللغة عن المشاعر الكامنة في النفوس وعن الأفكار التي تحملها الشخصية العربية على مدى قرون طويلة. ونعتقد من جانب آخر أن نجاح أي فيلم عربي على المستوى الجغرافي وعلى المستوى التجاري مرهون بتلقي الجماهير له. فإن لم يكن مفهوماً من قبل الجماهير لن يكون

ناجحاً، ومهما بلغت الإمكانات الفنية والتقنيات العالية. واللغة الفصحى أهم عنصر من عناصر انتشار الفيلم العربي ونجاحه على المستوى التجاري والجغرافي. والواقع أن إجماعاً واضحاً من قبل الجماهير العربية على أنّ الأفلام التاريخية الناطقة باللغة الفصحى تبرز أهمية دور اللغة وانسجامها مع الحدث التاريخي والقصة التاريخية.

وماينطبق على الأفلام ينطبق على المسرحيات والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية، فقد ساهمت كذلك في انتشار اللهجات المحلية. حتى إن جماهير الشعب العربي تعلقت بهذه المسرحيات والمسلسلات بسبب ماتبديه من فكاهة وظرافة باللهجة المحلية. متناسين أن ذلك يقوي النزعات الإقليمية ويقوي بالتالي المنادين بخصوص كل قطر عربي بما يتميز به من لهجة خاصة وشخصية خاصة أيضاً.